أفق مفتوح

حرب المعابر دون قانون !!

ناهض منير الريس

لم (يحلب) استعمار في التاريخ البشري كله شعبا أوقعه سوء حظه تحت مخالب الاستعمار قدر ما فعل الإسرائيليون بالشعب العربي الفلسطيني ! فبعدما جاؤوا من الغرب واحتلوا بلادنا وأخرجونا من بيوتنا وأكلوا ثمار مزارعنا وأسماك بحرنا وصيد بريتنا واستولوا على مصانعنا ومتاجرنا وامتصوا دمنا .. أضافوا إلى ذلك كله على مدى الزمن تسويق منتجاتهم الفاسدة في سوقنا وتسميم المستهلكين بالسلع التي تنتج في خطوط إنتاج تفتقد المواصفات الصحية . ولكي يحتكروا سوقنا الاستهلاكية ، أغلقوا بعد حرب النكبة ٢ عام ١٩٦٧ منافذنا التي تربطنا بأشقائنا العرب ، إغلاقا كاملا . واشتروا من أسواقنا ما كان معروضا فيها قبل الحرب من بضائع تقل أسعارها عن خمس أسعار مثيلاتها في إسرائيل . ثم لم يتركوا لنا خيارا غير شراء بضائعهم فحققوا أرباحا مضاعفة من هذا السوق الاستهلاكي الواسع الذي لا يدقق في البضاعة بحكم فقدان الخيارات . وفي مرحلة تالية استغلوا أيدينا العاملة الرخيصة التي لم يكن لها بدورها خيار غير العمل في إسرائيل ، واستأجروها في الأعمال الرثة التي يأنفها العمال اليهود والتي لا يكتسب العامل منها مهارات جديدة . والحقوا أسعار المواد الضرورية في المناطق المحتلة بأسعارها في إسرائيل رغم المستوى المختلف في الأجور . وهكذا جردوا العمال الفلسطينيين باليد اليمنى مما كانوا قد دفعوه لهم باليد اليسرى أجورا لقاء كدحهم من ساعة الفجر حتى ساعة الغروب . وقد ضربوا الاقتصاد الزراعي الفلسطيني ضربات متكررة . ففرضوا منذ الأيام

الأولى للاحتلال قيودا على الزراعة واستهلاك المياه ، وباعوا للفلسطينيين بأثمان باهظة شبكات ري حديثة من شأنها تقليل استهلاك المياه في البيارات الفلسطينية . ثم تآمروا على مواسم القطاف وحالوا دون تصدير المنتجات الفلسطينية إلى الأسواق وأسواق أوروبا بخاصة . وجعلوا الزراعة نشاطا استثماريا خاملا ، ثم مهجورا . بينما ترعرعت زراعاتهم وانفردوا بالأسواق الخارجية .

واستفاد من الاحتلال والاختلاط قطاع المستشفيات في إسرائيل (والأطباء طبعا) والعديد من أصحاب المهن الحرة ، وحتى المنشآت السياحية . وإن تنس لا تنس قطاع البنوك التي تقاضت من تحويلات الفلسطينيين في الخارج إلى أهاليهم في الداخل مبالغ لا يعلمها إلا الله . ويصعب عموما أن نحسب بالورقة والقلم ما خسرناه على صعيد المال والاقتصاد منذ نكبة فلسطين حتى اليوم ، وكذلك ما فاتنا من ربح محتمل . وفي حين نهبوا المياه الجوفية الغزيرة بواسطة مستعمراتهم التي أقاموها دائما فوق خزانات المياه الجوفية فإنهم عمدوا في مرحلة أشد أذى وأعظم كيدا لتجريف الأراضي الزراعية وهدم آبار المياه.

وأغرب من ذلك كله أن تلك الخسارة الصرفة المضاعفة المركبة في جانب الفلسطينيين تصحبها من جانب الإسرائيليين دائما دعاية مزوقة توحي للعالم (وللفلسطينيين أيضا) أن الاحتلال الحضاري الرحيم . لأنه احتلال الشعب المختار . مد إلى الفلسطينيين يدا سخية لم يحلموا بمثلها من قبل وغمرهم بالأفضال وصار لهم في أعناقنا ألف جميل !

بودي كثيرا أن يحاول بعض البارعين في الحسابات أن يكتبوا أبحاثا تقديرية ، يقدرون بواسطتها ما خسره الفلسطينيون وما تقاضاه الإسرائيليون وما فات

الفلسطينيين من ربح ومنفعة بسبب الكوارث التي ألمت بهم وبفعل الإدارة الإسرائيلية لمناطقهم وسياساتها الخبيثة .

. والجديد في هذه الأيام تلك اللهجة التي يتحدث بها إسرائيليون عاديون ورسميون على حد سواء في إشارة إلى التهدئة واستحقاقاتها . فالمرأة المتحدثة من مستعمرة اسديروت تقول عقب سقوط صواريخ الجهاد : لا ترسلوا بضائع للفلسطينيين في غزة ! لا تنهوا محاصرتهم ! بل شددوا عليهم الحصار ! والناطق باسم الخارجية الإسرائيلية جندلمان الذي يتكلم كرجل آلي ، يقول إن إسرائيل الرحيمة أرسلت المواد الغذائية والوقود الصناعي إلى قطاع غزة رأفة بالسكان .. رغم وجود الجماعات الإرهابية في القطاع .(فانظر إلى النبل والتضحية من أجل السكان الأبرياء) .

إنهم يتحدثون كما لو أن ما تقذفه المعابر من إسرائيل إلى قطاع غزة من سلع قد جاءنا هدية أو تبرعا من إسرائيل المحسنة . وينسون أن الفلسطينيين المحاصرين الذين لا يعلم إلا الله وحده كيف يتحصلون على النقود العزيزة الشحيحة التي يدفعونها ثمنا للبضاعة الإسرائيلية إنما يبذلون دم قلوبهم وآخر ما في جيوبهم .

أما السبب الذي من أجله تضخ الحكومة الإسرائيلية بعض المواد الغذائية إلينا فهو ضغط المنتجين الذين اعتادوا على تصريف أسوأ منتجاتهم في سوق قطاع غزة . وبينما يمر الإنسان بدكاكين الحدادة والنجارة ومواد البناء فيجدها خاوية على عروشها ، يمر بمحلات بيع الفواكه والخضروات فيجدها مكتظة بصنوف يسيل لمنظرها اللعاب . ولكنك عندما تتذوقها تجدها كالماء لا طعم لها على الإطلاق . وتعرف أن إسرائيل من الأقطار التي أفسدت جميع المنتجات الزراعية بمعاملتها إياها بالهندسة الوراثية من أجل الغايات التجارية وجاء ذلك على حساب الطعم والنكهة والرائحة . لقد

خربت إسرائيل من جملة ما خربت في بلادنا الأصناف (البلدية) ذات الطعم والنكهة الطبيعية ، والتي لا شك أن قيمتها الغذائية ثابتة على عكس المنتجات الإسرائيلية التجارية التي يحذر الناس في البلدان المتقدمة من أضرارها على الجسم .

والمنتجون الزراعيون الإسرائيليون لهم طرقهم في الضغط على الأحزاب والحكومات من أجل تصريف بضائعهم عند جمهورنا قبل أن تبور عندهم .

ولا ندري إذا كانت عمليات التجريف التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي لأراضينا وأشجارنا مقصود بها احتكار سوقنا الاستهلاكية لبضائعهم الزراعية أم لاحتكار مصادر المياه الجوفية أم للأمرين معا .

الاحتلال هو الاحتلال . والاستعمار هو الاستعمار والاستغلال هو الاستغلال . ومع ذلك فإن للحرب نفسها قانونا اسمه قانون الحرب أو القانون الدولي الإنساني .

ولما كان صراعنا معهم قدرا مقدورا فإن علينا أن نفهمهم أن الحرب العشوائية التي لا تتقيد بقانون ، وأيا كان صنفها ، يمكن أن ينقل العشوائية والاستهتار بالقوانين إلى جميع صنوف الصراع .. وذلك لا يكون مجرد عذاب ، ولكنه يكون الجحيم بعينه ...!

ذكريات وصور من رفح

رحم الله مصطفى عواد أبوعاذرة . كان فتى في السابعة عشرة من عمره تقريبا حين فوجئت به عام ١٩٦٣ يزور جريدة أخبار فلسطين التي كنت أساعد فيها الأستاذ زهير الريس رئيس تحريرها . وكان الشاب مصطفى حفيد الشيخ سلمان أبوعاذرة ؛ الذي هو واحد من الأبطال الذين تصدوا للعصابات الصهيونية في النقب قبل نكبة ١٩٤٨ وكانت بينه وبين الحاج طالب جد الأستاذ زهير صداقة وطيدة . وحاولت عصابة الهاغاناه

الإرهابية الصهيونية في ذلك الحين أن تعتدي على أرض مملوكة للحاج طالب فتصدى لهم الشيخ سلمان وحال بينهم وبين تنفيذ مأربهم . ثم جاءت النكبة فجرفت معها كل شيء . وظلت ذكرى وقفة الشيخ سلمان الذي توفي في مخيم رفح فيما بعد قصة يفخر بها الجميع .

جاء مصطفى إلى الجريدة يطلب الاهتمام برفح ومخيمها . وكان مخيم رفح في ذلك الحين أكبر مخيمات اللاجئين إطلاقا . وقال لي مصطفى إن سكان المخيم الذين يبلغون أربعين ألف لاجئ لا يجدون إلا مستوصفا طبيا واحدا يخلو من الأدوية معظم الوقت . فذهبت معه وعاينت المستوصف هناك وكتبت مقالة عن هذا البؤس الصحي . وكانت تلك البداية مع المخيم ومع مصطفى . فإزاء هذا البؤس الفريد وإزاء ما لقيته من مودة ومن حفاوة ثم من توثب وطني وتطلع إلى العودة والتحرير صار مخيم رفح بلدا ثانيا لي . واستأجرت بيتا داخل المخيم لأكون قريبا من هؤلاء الأصدقاء الجدد .

عندما أتذكر مصطفى الذي أبى يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ إلا أن يأتي ويمكث عندي في موقع المنطار بغزة رغم حثي إياه على العودة إلى بيته في رفح إذ كانت الحرب على الأبواب ، ثم اضطراري أن ألبسه شيئا من ملابسي الكاكي وأسلمه بندقية جندي غائب ، ثم نقلي إلى المستشفى بعد إصابتي بجراح وبقاء مصطفى هناك واستشهاده ، ثم العثور على جثته وقراءة اسمي على القميص الكاكي وبالتالي شيوع الخبر بأنني استشهدت .. طافت هذه الذكريات بمخيلتي وأحيت في نفسي الحنين للشهيد الذي أصبحت قريبا من بيته ولكن البيت أغلق بعد النكسة وبعدما رحل الجميع .

ولم تغلق البيوت في رفح العامرة ومخيمها الذي ضرب المثل دائما في الشظف وفي الكرامة الوطنية معا . ولم تتوقف هذه الحديقة البشرية الواقفة على حدود الصحراء عن العطاء .

كان لصلاة الجمعة في مسجد بلال بن رباح خلف الإمام الأستاذ نظير اللوقا نكهة خاصة فهذا واحد من الرجال الذين كلما تكلموا كلمة في الحث على الخير وعلى الاستقامة وعلى الجهر بالحق وجد المصلون خلفه مصداقا لكلماته في سيرته الشخصية وأخلاقه وهمته التي بنت أكثر من مسجد ، ومشت في حاجات الناس مرات لا تعد ولا تحصى .

وفي منزل عامر من منازلها هو منزل الدكتور أحمد يوسف مستشار الأخ رئيس الوزراء نعمنا بالأنس بصاحب الدعوة وبعدد من الإخوة المدعوين ، ودارت أحاديث الذكريات .

تكلم أكثر من أخ من الحاضرين عن (الثمانيات) و(الأربعات). والمقصود بالأولى البيوت التي كانت الوكالة توزعها على اللاجئين بعد النكبة والتي تقوم هندستها على سقف واحد ومبنى له جانبان يضمان ثماني غرف (أربعا على كل جانب) . أما الأربعات فكان فهي أربع غرف فقط على صف واحد .

كان صاحب الدعوة قد عاش وأسرته . ومجموعهم ثلاثة عشر نفرا . في غرفة واحدة من غرف نظام (الثمانيات) . وكان الوالد الذي يعيل هذه القبيلة من الأطفال والنساء وبينهم أمه وأخته يعمل فترتين في اليوم فما يكاد يعود الساعة الرابعة بعد الظهر إلى البيت حتى يتناول لقمة ويجري ليستلم العمل الآخر ، وذلك ليتمكن بمفرده من إعالتهم .

هذه الأسرة التي كان هذا حالها بعد نكبة فلسطين أصبحت اليوم رجالا عديدين ونساء منتشرين في بلاد الناس . وبكد ذراعهم وبعرق جبينهم بنوا الفيلات الأنيقة وتوسعوا في حياتهم وساند بعضهم بعضا وعاشوا في أمان . أحببت هذه الصورة التي أراها جبارة ذات دلالة رائعة على قوة عنصر الفلسطينيين وانبعاث عنقائهم من الرماد . وهي على كل حال قصة واحدة من آلاف القصص . وأعجبني أن النفسية الحلوة للراوي لم تصحب قصتها بالأسى ولا المرارة ولا شتم ذلك الزمان . أعجبني أنه كان قادرا على اكتشاف ما هو إيجابي في مشهد ثلاثة عشر إنسانا يأكلون وينامون في غرفة واحدة . قال ببساطة : عزز ذلك محبتنا وحس الأخوة بيننا الذي يقويه الاقتراب الجسدي .. وقد أنشأنا والدنا على الحب !!

أليس الفلسطينيون قوما رائعين ؟!